فصل من كتاب الأدب

رأيي في الشعر

الحديث

لعبد الرحمن شكري

بعد تركي المكتب بدأت أتعلم اللغة العربية في مدرسة بور سعيد الابتدائية سنة ١٨٩٥ على الطريقة القديمة أي طريقة حفظ الإعراب قبل دراسة قواعد النحو واللغة وكان ذلك بالسنة الاولى الابتدائية فكان الشيخ مصطفى رحمة الله عليه يملي على التلميذ بيتاً من الشعر فيكتبهُ التلميذ الصغير على السبورة ثم يعربهُ الشيخ ويحفظنا إعرابه بالنصا. ونحن لا نفهم معنى ذلك الإعراب لانا ما كنا درسنا قواعد النحو وارجو أن لا تكون قد خانتني الذاكرة في هذا الأمر فاني أريد الإنصاف ولكن الذي اذكره ان هذه كانت طريقته وكان الشيخ يختار الابيات التي تكثر فيها المحسنات البديعية من جناس وغيره. وقد كادت هذه الطريقة تُبَغِّضُ اليَّ اللغة العربية وهي على أي حال قد بغضت اليَّ كتب النحو وطريقة الجناس. الا ان تحفيظنا الشعر في الصغر جعلنا نحب الاطلاع عليه. وقد وجدت في مكتبة ابي كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفي الكبير وكان في الجزء الثاني من كتاب الوسيلة مجموعة صالحة من شعر الشعراء وكان به قصائد كثيرة للبارودي والشعراء الذين احتذى البارودي طريقتهم في قصائد مختلفة مثل الحسن بن هاني والشريف الرضي وغيرهما. وقد أفادني الشيخ المرصفي الكبير لحسن اختياره وسلامة ذوقه وموازنته بين الشعراء وسعة اطلاعه وعلو ذهنه عن التعصب لشاعر واحد أو طريقة واحدة مهما تكن جلية. فاذا كنت مديناً لأحد فأنا مدين للشيخ المرصفي الكبير عما أفادني في كتاب الوسيلة الأدبية ومدين للشعراء الذين اختار لهم. وكنت أقدم من الشعراء المعاصرين البارودي بسبب هذا الكتاب ولم اكن قد قرأت في ذلك العهد شعر شوقي أو حافظ أو خليل مطران ولم أكن قد سمعت بعضهم فاني ما كنت اقرأ الجرائد أو المجلات. وكان اطلاعي على شعراء الوسيلة الأدبية بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٠٠ ثم انتقلت الى مدرسة رأس التين الثانوية وكان استاذنا في اللغة العربية الشيخ عبد الحكيم حسن الأختيار والشرح ولا ازال أذكر شرحه لابيات من شعر المعري يصف فيها غديراً وهي قوله :

تَظُنُّ بِهِ ذُوبَ المُجَيْمِرِ فَانْبَدَتْ لَهُ الشَّمْسُ أَجْرَتْ مَوْهَ ذُوبٍ عَسْجَدِ
تَبِيتُ النُّجُومُ الزُّهْرُ فِي حُجَرَاتِهِ شَوَارِعَ مِثْلَ الْقُرْبِ لَيْسَ بِسَرْمَدِ
فَأَطْمَعْنَ فِي أَشْبَاحِهِنَّ سَوَاقِطاً عَلَى الْمَاءِ حَتَّى كِدْنَ يُلْتَقَطْنَ بِالْيَدِ
فَمَدَّتْ إِلَى مِثْلِ السَّمَاءِ رِقَابَهَا وَعَبَّتْ قَلِيلاً بَيْنَ نَهْرٍ وَفَرْقَدِ

ويعني بالضمير في مَدَّتْ الابلَ في القافلة ويعني بمثل السماء الغديرَ الذي انطبعت فيه صورة النجوم من نهر وفرقد والتي شبهها في البيت الثاني باللؤلؤ في الغدير ووصف الغدير بانهُ اذا سطع عليه القمر قليلاً وسطعت النجوم كان كذوب الفضة وبالنهار اذا سطعت عليه الشمس كان كذوب الذهب. وهذا الاختيار الحسن جعلني أغرى بأحسن ما في الشعر العربي. وكان استاذنا في اللغة الانكليزية المستر ستيفنز لا يقتصر على الكتب المقررة بل كان يشجعنا على قراءة كتب أدب اللغة الانكليزية في طبعة سهلة رخيصة وكان يجمع لنا نقوداً ويشتريها لنا فأطلعنا على مجموعة صالحة من الكتب التي كان قد سهّل طبعها لتلاميذ المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية. ولم يقتصر على الادب بل كان يشجعنا على اقتناء نسخ رخيصة جداً ومنقحة من الصور الفنية واظن ان المستر ستيد كان ايضاً صاحب هذا المشروع. ومما يدل على تأثري بالبارودي اني رثيته عند موته بقصيدة طبعها خليل بك مطران في مجموعة مراثي البارودي ولا اذكرها الآن. ولكن لا احسب انها كانت ذات قيمة. وقد زاد اطلاعي على الادبين العربي والانكليزي في مدرسة المعلمين العليا وكانت الوزارة قد وزعت علينا كتاب الذخيرة الذهبية في الشعر الانكليزي وكتباً اخرى وكتاب الذخيرة يدل على حسن اختيار وسعة اطلاع وهذه هي الكتب التي تأثرت بها في نشأتي الاولى وقد أطلعتُ المرحوم حافظ بك ابراهيم على قصائد من قصائد الجزء الاول من ديواني في محل حضره فقطن الى اني احتذي شعراء الصنعة العباسية كما في قصيدة البيت الآتي:

عميَ الدجى عن مطلع الفجر في ليلة كخريدة الدهر

وفي هذا البيت احتذاء لقول ابن المعتز

يا ليلة نسيَ الزمان بها اجداثه كوني بلا فجر

وفي البيت:

لا تلحَ مشتاقاً على شجن ان الشباب مطيةُ العذرِ

احتذاء لقول الحسن بن هانىء: (ان الشباب مطية الجهل)

والقصيدة (أتكر أشواقي وأنت دليلها) فيها احتذاء ظاهر لقصيدة الشاعر الذي يقول

(وانت ولا منّ عليك حبيبها) وقصيدة (واجهة الهوى تعب) فيها احتذاء لقول الحسن بن هاني (حامل الهوى تعب) وقصيدة :

وزلولتُ السباق بها فلما سبقتُ البرقَ جاريتُ المرادا
بلغتُ بها المدى فلو استزادت عُلُوّاً ما وجدتُ المستزادا

فيها احتذاء لقول المعري :

وكم من طالبٍ أمدي سبقي دوين مكانيَ السبع الشدادا
ليَ الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا

والبيت : — أيُهنّدا الغريب بالبلد النا زح ماذا دهاك عند الغروب

فيه احتذاء لقول الشاعر ولعله العباس بن الأحنف

يا رحمة للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

ولو ان الوزن مختلف . وقصيدة

فكأنّ أزاهر منثورة تزّ البشر غُرّة الخير تُدي

في بعض أساليبها محاولة احتذاء مسلم في قوله (عاصي الشباب فراح غير مُفنّد) والبيت :

ذكرتُ به ليلاً كأن نجومه ثقوبٌ نرى منها الصباح المستّرا

فيه احتذاء لقول ابن المعتز (ثقوب نرى منها الصباح وأنقابا) وقصيدة :

شكوتُ اليه ذلّتي فتحكما وأرسلت دمعي شافعاً فتبرّما
وقال له الواشون أنت وصلته بعنك طيفاً في الكرى فتظلما
وخبّر اني سوف أخلس نظرة اليه فأضحى بالحياء مُلثّما

فيها احتذاء ومعارضة لقول أبي تمام

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا وقبّلتُ يوماً ظلّهُ فتغضّبا
وخُبّرَ أني قد مررتُ ببابه لاخلس منهُ نظرة فتحجّبا

وقصيدة :— وكيف ألوم الدهر فيما يريبني وأحسن شيء في الزمان عيوبه

في بعضها احتذاء لقصيدة للشريف ومعارضة لها وهي التي يقول فيها :

وإني لعرفان الزمان وغدره أبيت وملء فكرة في خطوبه .

ولم يعب حافظ ابراهيم هذا الاحتذاء وهذه المعارضة بل أثنى عليهما وقال أنهما ينجيان من رطانة الفرنجة وعلى مرّ الزمن قللت من هذا الاحتذاء الظاهر وبقيت في ذهني نصيحة حافظ وأثر الشعر العربي المختار المتنوع الذي احتذيته. وفي هذا الجزء الاول آثر أيضاً ما اطلعت عليه من الشعر الانكليزي مثل قصيدة (تحية للشمس عند شروقها) وقصيدة (حنين الغريب عند

غروب الشمس) وقصيدة (رثاء الحب) وكان ابتدائي للشعر الانكليزي في توليد الموضوعات الجديدة لا في أساليبه. وبعد انتهائي من مدرسة المعلمين سافرت في بعثة الى انكلترا سنة ١٩٠٩ اي قبل حرب العظمى بنحو خمس سنوات وطبعت الجزء الثاني بعد عودتي ولا تغلب عليه نزعة التشاؤم ولا نزعة المذهب الطبيعي ولم أفهم تمام الفهم ما يعني الكاتب بالمذهب الطبيعي. في الديوان قصائد ونظرات في حياة الامم وفي الايمان والقضاء وفي الحياة والعبادة وفي القلق الذي هو مصدر الرقي وفي الجمال والعبادة وصلتهما وفي ضحكات الاطفال وفي وصف البحر وفي معانٍ لا يدركها التعبير وفي لسان الغيب وفي الشاعر وصورة الكمال وفي عيون الندى وفي الانسان والزمن وفي ابتسامات وفي الحسن والآمال النبيلة وفخر الشباب والايمان بالحياة الخ ولا يقول ان التشاؤم يغلب عليه الا من لم يتح له الاطلاع عليه او من يتعمد التضليل. وفي الديوان اثر دراسة شعراء مختلفي النزعة فلا يستطيع مطلع ان يقول انهُ تغلب عليه نزعة شاعر واحد او مذهب واحد فان كان فيه تشاؤم وحزن ففيه أمل وسرور وما يصدق على هذا الجزء يصدق على غيره. ومن المشاهد ان الشاعرين الانكليزيين اللذين تأثرت بهما في اول الامر كانا يريان وشلي وكيتس يريان لقوة شعره ويثلي لطموحه الى المثل العليا وهما من شعراء المذهب الخيالي لا المذهب الطبيعي ولولا أن التبسط في الشرح يأخذ من المجلة مكاناً أعظم لتبسطنا

***

كان هذا الشرح التاريخي ضرورة كي استخلص منهُ نصيحة للشبان وهي ان لا يقصروا اطلاعهم على شاعر دون شاعر أو على عصر من عصور الأدب دون عصر وان يكون أساس إطلاعهم الأدب العربي واما الأدب الأوروبي فهو لنا في المرتبة الثانية ولا يكون الأطلاع عليهِ مفيداً الا بعد دراسة الأدب العربي في العصور المختلفة وينبغي أن لا يغترّوا بالنظريات التي يذكرها نقاد يكتبون مقالات مطولة من غير ايراد الشواهد العديدة والأمثلة من شعر ونثر ومن غير نظر الى جوانب الموضوع، وينبغي أن لا يخدعهم قول من يريد تلقيح اللغة العربية بأساليب افرنجية الا ما كان يمكن قوله على سبيل الاستعارات والتشبيهات بحسب أصول اللغة ولو لم يطلع قائله على الشعر الأوروبي، ولا أن يخدعهم قول من يفضّل جمال الدين بن نباتة المصري على عبد العزيز بن نباتة السعدي على طريقة الاول وعظم مرتبة الثاني لان الاول كان مصريًّا ولغته أسهل وأقرب الى لغة الكلام فهذا ليس أجل شيء في الشعر وقصد جعل لغة الشعر قريبة من لغة الكلام لا يأتي بالسهل الممتنع وإلا ما سُمّي ممتنعاً فهو ممتنع لانهُ بعيد عن ركاكة وغثاثة وفتور من محاكي لغة الكلام، وأرجو أن لا يخدعهم ايضاً الأزياء التي تذيع في الشعر أو النثر ثم لا تلبث أن تنطوي وتزول كما تنطوي الازياء وربما خلّدت قوةُ الشاعر الممتاز الذي

يكتب على منهج تلك الازياء والعادات المؤقتة قصيدة أو قصيدتين فيهما شعر وفكرة وروح من العبقرية والخلود ولكن اكثر شعر هذه العادات المؤقتة يُكتب كما تُكنس غبار الطعام. ومن هذه العادات والازياء التي ينادي بها مذهب الرمزية فكل شاعر يستخدم الرموز ولكن ليس كل شاعر بشاعر رمزي ولا بد أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن الشعر صنعة وليس معنى هذا القول انهم ينبغي أن يشغلوا نوعهم بالاساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فان الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران ولا يُعرف الفرق الا بالاطلاع على الصور المختلفة كي لا يعيش الواحد منهم عالة على شاعر واحد قديم أو حديث مهما يكن كثير الأناقة ولا يفرض قول من يريد أن يشعر كالشعر الذي يعض الآراء العامية الحديثة من غير ان تحولها كيمياء النفوس وصنعتها من صيغة العلم الى صيغة الفن ومن غير ان تختمر في وجدان الفنان ومن غير ان يمط ذوقه عنها غشاء الحالة وقلة الاتزان في المناداة بها فان تعصب الشاعر لمثل لآرائه الخاصة للاديان يقلل من قيمة فنه وصنعته حتى لدى من لا يؤمنون بالاديان وانما تقل مرتبة شعره عند هؤلاء لا من اجل غيرتهم على الاديان بل من اجل ان بعض التعصب ضد الأدين يفقد الشاعر اتزانه وقدرته الفنية وذوقه. وكذلك كل تعصب لرأي سياسي او اقتصادي قد يفقد الشاعر بصيرته النفسية وذوقه ويقلل من قيمة شعره فالذوق الفني والبصيرة النفسية المتزنة لا زمان حتى للشاعر الذي يريد ان يعبر عن شكوك نفسه. وكذلك احذر الشبان مما يسمى بالشعر الحر ويعني به اصحابه قصيدة تكتب اشطرها وأبياتها على بحور عروضية مختلفة وهذا الشعر يذكرني قصة ملك زنجي من اواسط افريقيا ومن رعايا الدولة البريطانية زار لندن عاصمة انكلترا فنظمت له وزارة الخارجية حفلة موسيقية وبعد توقيع الأدوار طلب الملك الزنجي ان يعاد توقيع الدور الاول فوقعه العازفون فقال ليس هذا بالدور الأول فأعادوا توقيع كل الادوار وهو يقول ليس هذا بالدور الاول وأخيراً سكت الموسيقيون للاستراحة وجعل كل منهم يصلح آلته الموسيقية وهو في اثناء اصلاحها يُخرج منها صوتاً يختلف عن اصوات الآلات الأخرى فصاح الزنجي ها هو الدور الأول. والشعر الحر المختلف الأوزان في قصيدة واحدة قصيرة وفي البيت الواحد انما هو من قبيل هذا الدور الاول. وقد بلغ من استهتار بعض الأفاضل انهم يسخرون ممن يتذوق العبارات كما يتذوق الشارب شرابه من اللذة. وربما كان فضلهم هذا من قبيل رد الفعل بسبب مغالاة بعض الشعراء في إثقال شعرهم بكابوس من الاساليب العربية الصحيحة التي ليس نحتها طائل والتي يبلونها حتى تصير اكواماً تخفي نحتها غثاثة المعنى ونضوب العاطفة. وأنا لست ممن يطري طريقة هؤلاء ولا طريقة الساخرين الذين يتجاهلون ان الشعر صنعة وانما يدفعهم الى هذا التجاهل خوفهم من كابوس التصنع

لقد نشرت في النظم والمقتطف والرسالة قصائد عديدة في المقتطف نشرت قصائد موضوعها الشعور والارتقاء والحق والحسن وقيد الماضي وحواء الخالدة وحالتان للقمر ونشرت في النظم قصيدة في الجهول والخلق العظيم ونشرت في الرسالة قصائد في موضوعات مختلفة وهي مختلفة لاختلاف جوانب القافة الشعرية والقصة التي انشدها . وبالرغم من اجلالي لخليل بك مطران والدكتور ابي شادي اقول انها ليس فيها احتذاء لطريقة خليل بك ولا تقارب من طريقة ابي شادي في الذوق . واهداني نسخة من ديوان الشريف الرضي للاستاذ المازني سنة ١٩٠٦ يدل على مذهبي في الشعر وان كنت لا اتقاضى في اساليب الشريف ولا ارفض ما عداه من شعراء عصره او العصور الاخرى . اما التقارب بيني وبين الاستاذ العقاد في القافة الشعرية فسببه اطلاعنا على ثقافة واحدة كما أوضحت . وقد فسر بعض الادباء شيئاً من قولي على غير ما اردت فقصيدة (بين الحب والبغض) في الجزء الثالث وهي القصيدة التي القى عنها الاستاذ المازني محاضرة كما ذكر لي في حضاب انما هي دراسة نفسية اعرت بها ابيات جميل بن معمر الشاعر العربي يقول فيها (رمى الله في عينيّ بثينة بالقذى) وقصيدة (ليتني كنت انسياً) في الجزء الثاني اعرب بها الاطلاع على الحرافات الافرنجية وتأثر بقدوة هي الشاعر الالماني وهي ليس فيها تجديد لسبل ذلك الانسان الراغب في صلاح الكون لانه لم يصلحه وفيها تجديد للفنون ومسرحها ولكن صرف النفس عن الاحاسيس الاخرى غير الفنية مقصوراً كما وصف في هذه القصيدة وكما وصف تيسون الشاعر الانكليزي في قصيدة (قصر الفن) . وكذلك يأبى بعض الافاضل الا ان يسيء تفسير قصيدة (حُلُم بابلي) وهي سخر بعيوب النفس الانسانية من تقاتل وتهافت ولمثل هؤلاء الافاضل اقول اقرأوا قصيدة (صوت الله) و(الفلك الدائر) و (الارواح الطليقة) و(سجن الفضيلة) و(زورة الملائكة) و(المثل الاعلى) و(صلاة مؤمن) و(الكونتن) و(الامل) . والظاهر ان القارىء لا يأخذ من قول القائل الا ما يشاء لغرض في نفسه ثم يفسره بما تشاء اهواؤه والا ما ترك قارىء قصيدة (الباحث) وغيرها من القصائد التي تدل على طموح الى المُثُل العليا وعلى امل في الحياة والانسان وما تنفك احدٌ عن ان الامتعاض والسخر قد يكونان مظهراً من مظاهر الأمل والرجاء ولما ترك القارىء قصائد عديدة في مذاهب جوبتي او يرونج الثقافية وتشبث بقصائد فيها وصف خفيف لمقاطع النفس الانسانية على طريقة سوينبورن

***

هذا ولست ممن يدعي لنفسه العصمة من خطأ اللفظ أو العقل او النفس ولو اني طبعت شعري لحذفت منهُ اشياء لاقية لها ، او يُساء بها الظن على نحو ما اوضحت في هذا المقال

ولعلَّ من تمام الفائدة والحجة ان نذكر شواهد أخرى من الجزء الاول للدلالة على ما كان من احتذاءِ العباسيين في صناعتهم ولابطال زعم الناقد الفاضل في نحو الاربعين قصيدة عنوانها (شكوى) منها :

ومُطَلَّبٍ بالنصب هجريَّ لم أزل ... أداريه حتى عارضتهُ سَذَاهِبُهْ
يعالج مني باسم الشعر راضياً ... وأخبُرُ غِرًّا أنكرته مغالبُهْ
أجود بنفسي في هواه سماحة ... ويبخل بالوِرد الذي أنا طالبُهْ
وما كل أمر تستقيم صدوره ... لمن لم يَرُضْهُ تستقيم عواقبُهْ
لقد ساءني ان أقبل الذل خلة ... على البين الاَّ ما تُقِلُّ مطالبُهْ
ووكَّل بي الإعراض حتى ألفتهُ ... وما كل صافي الوجه تصفو مشاربُهْ
وليلٍ كأخضاء الحلم ادَّرَعْتُهُ ... لأقضيَ او تنجاب عني عياهبُهْ

وفي هذه القصيدة احتذاء لقصيدة لبشار على الوزن والقافية والروي وفيها دعوة أيضاً الى التسامح في الاخاء وهي التي يقول فيها

اذا كنتَ في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهُ
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربهُ

***

ولعلَّ ناقداً يقول كيف يتَّفق الاحتذاء وارضاء مطالب النفس وهذا الناقد يعلم ان الاحتذاء شيء والنقل والاخذ بالنص أو شبه النص شيء آخر . والاخير هو الذي لا يُرضي مطالب النفس والوجدان . وفي قصيدة (خداع النواب) في الجزء الاول وصف الطبيعة منها

نسمات الربيع تخفق كالقلـــب برفق فيعلّل اللبيب الطبيبا
فهي تغدو ما بين غصنٍ نضير ... فاتن حسنه وغصنٍ نضير
كالرسول الاديب بين محب ... وحبيب أو كالحكيم المشير
يعقد الصلح في أناةٍ كما يعقد ... رب النُّهى قضاء الامور
وضياء الشمس المنيرة كالبشر ... اذا ما احتواه وجه البشير
وهناك الطير المغرِّد كالشاعر ... يتلو مجد الزمان النضير
نفمات لم يحوها المطربُ البارع ... الاَّ دعـــوى نفاق وزور

الخ . وفي اختتام القصيدة المعري التي يقول فيها : —

فعي لخانه في زوره خضراء تشدو في بزاره متنور
وغدت كل ربوة تشتهي ارقص من ثوبر من النبات نضير

وفي القصيدة بعض قوافي المعري نفسها وهي تلاق وزور من قول المعري (دعوى شتاق وزور) وتشبيه النسيم بالصب فيه التفات الى قول جحظة (عتاب بين جحظة والزمان) . ومن فكاهات النقد ان الناقد اتقد في قصيدة رثاء مصطفى باشا كامل قولي (وانثى دانية والمجد عالي) وقال هذه عبارة تموزها الفخامة قلت هي من قول شاعر الفخامة الشريف الرضي : (قالبني وافية والمجد عالي) في قصيدة له في الرثاء وزعم الناقد آخر ان عبارة (الأمل المنصول) انكليزية قلت هي من قول ابي تمام

كانت لكم اخلاقه منصولة فتركتموها وهي ملح علقم

وقد استخدمها البحتري وغيره اكثر من مرة في وصف الآثار والاحلام والايام والليالي الخ في الجزء الاول قطعة عنوانها (غلالة الصهباء) منها :

فتشى الخياط في الخمر حتى حجبته غلالة الصهباء

والمراد احمرار كاحمرار الخمر وهذا اختلاف غلالة خمر في قول ابي تمام

خدش الماء جلده الرطب حتى خلته لابساً غلالة ناعم

***

هذه الشواهد تدل على مقدار تفاقي في الادب العربي كما ان قصيدة (بيرون) شاعر المذهب الخيالي في الجزء الأول تدل على مقدار تفاقي في الأدب الانكليزي وهي التي قلت فيها :

تقول فولا قطر دمع من شجن كأن قلبك مدارٌ على العبر
ألبسته من سواد الحزن عاتية خلتها من سواد القلب والبصر

ورثائي البارودي فيه دلالة اخرى كما ذكرت . ولحافظ ابراهيم نحل على الادب المصري حتى ان شوقي بك نفسه في اول امره لم يكن يتذوق الأساليب ويتوخى الاناقة حتى خشي على شعره من نبوغ حافظ واشتهاره بتذوق الأساليب فجاراه شوقي وجاراه حافظ . وقد اتممت معرفتي بأقوال جويني الاثاني وقدوته ما بدأته معرفتي بنسمة اطلاع الشيخ المرصفي الكبير في كتاب (الوسيلة الادبية) من توخي الثقافة المتعددة الجوانب وهذا موضوع يستلزم مقالاً آخر لاثباته بالشواهد والأدلة وسأكتبه